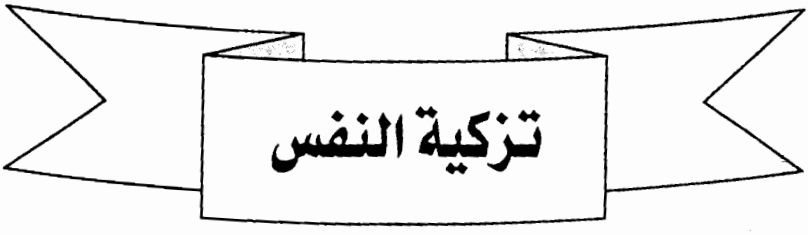

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

[الشمس: ٩، ١٠]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله

وبعد..،

زكاة النفس وصلاحها من أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم والمسلمة، وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1].

وتظهر أهمية الحديث عن تزكية النفس بالنظر إلى الواقع الذي نعيشه اليوم وغلبة النظرة المادية فيه على الناس، وتلوث الفطر والنفوس بكثير من الآفات والشهوات التي قد أفرزتها الحياة المعاصرة التي صبغ الناس فيها بصبغة غريبة غربية على الفطرة وعلى النفس المستقيمة النقية.

والذي ينظر نظرة سريعة إلى الواقع المعاصر يستطيع أن يتبين إلى أي حدّ فسدت فطر الناس وعقولهم وعقائده وعباداتهم

ومعاملاتهم وأخلاقهم وتردت سلوكياتهم إلى هوّة بعيدة ساحقة بينها وبين السلوك الإسلامي الصحيح بون شاسع، ومسافة بعيدة.

فعلى مستوى العقيدة نجد أن كثيرًا من الناس قد تعلقت قلوبهم بغير الله رغبة ورهبة وطمعًا وخوفًا، فاتجهت قلوبهم إلى عباد أمثالهم يعتقدون ولايتهم وصلاحهم بالحق أو الباطل فدعوهم من دون الله تعالى، وقربوا إليهم النذور

---

(١) الشمس: ٩، ١٠.

والذبائح والقرابين، واستغاثوا بهم من دون الله تعالى وتضرعوا إليهم لجلب نفع أو دفع ضر، والله تعالى يبين لهم حقيقة ضلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

وطائفة أخرى قد ساءت ظنونهم في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وصلاحيتها لإصلاح أمور معاشهم وتدبير أمورهم، فتعلقت قلوبهم بدونه سبحانه ممن هم أسفل الخلق وأراذلهم وأبعدهم عن الهداية إلى الصراط المستقيم.

فاتجهوا إليهم بقلوبهم وعقولهم، وتطلعت إلى باطلهم أبصارهم، وأخذتهم زخارف الباطل وبهارجه، فضلوا عن سواء السبيل.

هذا على مستوى العقيدة، أما على مستوى العبادة، فقد انصرف كثير من الناس عن أداء العبادة الأساسية المفروضة وهي الصلاة فضلاً عن انصرافهم عما دونها من العبادات.

والبقية الباقية الذي يؤدون هذه العبادة إذا نظرنا إلى حال أكثرهم وهم جمهور المصلين، فإننا نجد أن هذه العبادات قد فقدت روحها لديهم وصارت أشبه بالعبادات اليومية من الطعام والشراب ونحوها؛ وذلك لأن أغلب الناس صاروا يؤدونها بلا خشوع ولا تدبر ولا تفكر فيما يتلون أو يُتلى عليهم، هذا فضلاً عن عدم التزام أكثرهم بشروط صحة هذه العبادة وأركانها وفرائضها فضلاً عن سننها ومستحباتها.

أما على مستوى المعاملات فقد فشا بين الناس الغش والخداع والكذب والظلم وأكل حقوق الناس وأموالهم بالباطل، وأخذ الرشوة، والتعامل بالربا وما لا يحل من العقود.

وأما من ناحية الأخلاق والآداب والسلوك فحدث ولا حرج، والواقع خير

---

(١) الأعراف: ١٩٤.

شاهد على فساد الأخلاق والسلوك لما هو ظاهر مشاهد من شيوع العُري والسفور والتبرج والاختلاط المحرم بين الشباب والفتيات، فضلاً عما تطالعنا به الصحف كل يوم من حوادث الاغتصاب والقتل والسرقة والنهب وتعاطي المسكرات والمخدرات وغير ذلك.

ناهيك عن فساد الآداب والسلوك على مستوى الأسرة نفسها حيث تباح الخلوة بين الرجال والنساء الأجنبيات ويباح الاختلاط بينهم بغير تحفظ ولا تقيد بقيود شرعية، وغياب السلوك الإسلامي في جميع مظاهر الحياة الأسرية لدى أغلب الأسر في طعامهم ولباسهم وخروجهم وتنزههم وغير ذلك.

كل ذلك يدعونا إلى وقفة نحاسب فيها أنفسنا ونحاول إصلاح فسادها وتخليصها من الرذائل، والعمل على تحليتها بالفضائل، وتنمية جوانب الخير فيها.

وهذا هو مفهوم التزكية في أوضح صورها.

تعريف التزكية:

التزكية: تخلية وتحلية وتنمية.

فالتزكية: هي تخلي النفس عن الرذائل، والتحلّي بالمكارم والفضائل، وتنمية الخير بشرعيّ الوسائل.

فالتزكية تدور معانيها في اللغة حول ثلاثة معان، هي: التطهير والإصلاح والتنمية.

فتأتي التزكية بمعنى التطهير:

يقال: زكىّ ماله أي طهره، وزكىّ نفسه أي طهرها من دنسها ورجسها. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1]، وقال تعالى على لسان

(١) الشمس: ٩، ١٠.

موسى لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾[١]، وقال أيضًا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[٢].

وتأتي بمعنى الإصلاح:

يقال: زكا الرجل أي صلح، قال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[٣].

وتأتي أيضًا بمعنى التنمية والتكثير:

يقال: زكا الزرع إذا كثر ونما وطاب. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۞ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[٤]، فمن تزكى أي تطهر وأصلح نفسه وأقبل على الصلاة وذكر الله تعالى زاد خيره، وزكت نفسه، ونمت فضائلها وكثرت.

وبهذه المعاني الثلاثة وردت التزكية الشرعية، فهي تطهير للنفس من أرجاسها وأدناسها ورذائلها، وهي إصلاح للنفس بتعويدها الفضائل وتحليتها بالمكارم.

وهي تنمية لجوانب الخير في النفس البشرية، وتعهدها وتربيتها حتى تصل إلى درجة سامية من درجات الكمال الإنساني وذلك بالوصول إلى درجة العبودية الحقّة لله رب العالمين.

التزكية أولاً:

ينبغي البدء بالتزكية أولاً وقبل كل شيء، فهي بداية الطريق.

فها هو موسى- عليه السلام- يدعو فرعون إلى طريق الله تعالى فيبدأ الطريق معه من التزكية، وذلك بأمر من الله تعالى حيث يقول لموسى- عليه السلام-:

---

(١) النازعات: ١٨.
(٢) التوبة: ١٠٣.
(٣) النور: ٢١.
(٤) الأعلى: ١٤، ١٥.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾[١]. التزكية إذًا هي البداية، وهي الخطوة الأولى في الطريق إلى الله تعالى.

وموسى -عليه السلام- نفسه يعدّه ربه سبحانه وتعالى لحمل هذه الرسالة، فيبدأ في تكليفه بما يزكي نفسه أولاً، ويهيؤها لحمل أعباء وتبعات هذا الأمر العظيم.

قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[٢].

وهذه الليالي هي التي أمر الله تعالى موسى-عليه السلام- أن يجتهد فيها في عبادة الله تعالى، وأن يتقرب إليه فيها بالصوم والصلاة ففرض عليه صيامها تطهيرًا لنفسه وتزكية لها قبل لقاء ربه لتلقي ألواح التوراة حتى يكون أهلاً لحمل هذا الأمر العظيم، وحتى يأخذه بقوّة وجدّ، وذلك كما قال تعالى ليحيى -عليه السلام-: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[٣]، وذلك بعد ما أتاه رشده وزكاة نفسه حيث قال عقبها: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

ولما كان بنو إسرائيل قومًا غلاظًا جفاة قاسية قلوبهم لم يستجيبوا لموسى فيما دعاهم إليه من تزكية نفوسهم وإصلاحها، ولذا لم ينتفعوا بالتوراة ولا بالعلم الذي جاء به موسى - عليه السلام - إليهم.

بل لم يكن منهم إلا اللجاجة والعناد، والدليل على ذلك أن خيار بني إسرائيل ذهبوا مع موسى- عليه السلام- في لقائه لربه وسمعوا كلام الحق سبحانه وتعالى لموسى من وراء الجبل، ومع ذلك قالوا له كما يحكي القرآن عنهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾[٤].

---

(١) النازعات: ١٧-١٩.
(٢) الأعراف: ١٤٢.
(٣) مريم: ١٢.
(٤) البقرة: ٥٥.

ثم اختلفوا بعد ذلك فيما بينهم بعد ما جاءهم العلم حسدًا وبغيًا من بعضهم على بعض، كما أخبر القرآن الكريم عنهم حيث قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[1].

فرغم أنهم كانوا على علم ومعرفة بالحق الذي أنزله الله تعالى فإنهم اختلفوا فيما بينهم وحاد أكثرهم عن الحق الذي يعرفونه بغيًا وعدوانًا من أجل معاداة طائفة وموالاة أخرى، أو لأجل عَرَض من الحياة الدنيا.

وأكبر دليل على ذلك أنهم عرفوا صفة محمد ﷺ في التوراة، وعرفوا أنه النبي الحق المنتظر مجيؤه في آخر الزمان؛ ومع ذلك لم يؤمنوا به ولم يتبعوه.

محمد ﷺ النموذج الأسمى في تزكية النفس:

وحينما أراد الله تعالى أن يمن على البشرية بالهداية وبإخراجهم من الظلمات إلى النور اطلع إلى أهل الأرض فاصطفى منهم أزكاهم قلبًا وعقلاً ونفسًا، وأوحى إليه ما يزكي به نفسه، فتزداد به نفسه زكاة وطهرًا وقداسة، فأوحى إليه أن يتعبد في غار حراء فكان يتعبد فيه الليالي الطويلة ذوات العدد فتقول عائشة –رضي الله عنها–: "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو في غار حراء، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق في غار حراء، فقال له الملك: اقرأ! قال:" ما أنا بقارئ.

قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ! قلت: ما أنا بقارئ!

قال: فأخذني فغطني الثانية ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ۞ عَلَّمَ

(١) الجاثية: ١٧.

الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾»[1].

فرجع بها رسول الله ﷺ إلى خديجة ترجف بوادره.

فهذا يدلنا على ضرورة البدء بالتزكية حتى تتأهل النفس لحمل أمانة هذا الدين، وهذا ما بدأ به الله تعالى مع رسوله ﷺ حيث حبّب إليه الخلاء في مبدأ أمره فكان يخلو في غار حراء يتحنث، أي يتعبد، وأصل التحنث هو التخلص من الحنث وهو الذنب والإثم، فهي عملية تطهير للنفس بالتوبة والاستغفار وذكر الله تعالى والتفكر في نعمه وآلائه والتوجه إليه بالضراعة والحمد والثناء.. إلخ وما يقرب العبد إلى ربه من صور العبادة وأنواعها.

وكان هذا الأمر ضروريًّا قبل تحمل النبي ﷺ أمانة الرسالة؛ وقبل أن يوحى إليه بهذا الوحي المعجز بما يحمله من أعباء وتكاليف ثقيلة حملها النبي ﷺ وتنوء بحملها الجبال.

التزكية أولاً أم التعلم؟

قد يفاضل بعض الناس بين التزكية والتعلم ليجزم بأولوية أحدهما وأحقيته بالتقديم، فيرى البعض أن التزكية أحق بالتقديم على العلم، ويرى البعض بأن العلم أحق بالتقديم، ولكننا نحب أن نوضح أمرًا مهمًّا في هذه النقطة يزيل هذا الإشكال، وهو أن نبين أن العلم منه ما هو فرض عين يلزم كل مسلم تعلمه لحاجته إليه في عبادته اليومية أو فيما يخصه هو بعينه من الأمور.

فهذا لابد له من تعلمه بنفسه وتحصيله له، وهذا مثل تعلم أصول العقيدة الصحيحة التي تجب معرفتها على كل مكلف، ومعرفة أحكام العبادات اللازمة له كالصلاة والصيام والزكاة والحج ونحو ذلك، ومعرفة أحكام المعاملات الضرورية التي يحتاج إليها ويمارسها في حياته اليومية، ومعرفة ما ينبغي أن يكون عليه المسلم

---

(١) العلق: ١-٥.

من الأخلاق والآداب الإسلامية القويمة.

ومنه ما هو فرض كفاية يتعلق بها لا حاجة للمسلم فيه في وقته الحاضر، ولكنه قد يحتاج إليه في مستقبل حياته أو يحتاج إليه غيره من الناس فيجد جوابه عنده، وذلك كمسائل الميراث ودقائق العبادات والمعاملات ومعرفة قواعد العلوم وأصولها كمعرفة أصول الحديث وأصول الفقه ونحو ذلك كالتعمق في علوم اللغة العربية نحوها وصرفها وبلاغتها فالنوع الأول من العلوم، وهو ما يختص بها هو فرض عين على المكلف هو ما يلزم المسلم معرفته والعمل به في مرحلة تزكية نفسه وإصلاحها، ومن ثم فهذا القسم من العلوم لا ينفك عن عملية التزكية وليس هناك مفاضلة بينه وبين التزكية لأنه جزء من التزكية الشرعية الصحيحة لا تتم إلا به.

وذلك لأن التزكية المطلوبة ليست مجهولة الوسائل، وليست متروكة إلى المكلف ليحدد لنفسه الوسائل التي يقوّم بها نفسه؛ بل إن وسائل هذه التزكية لابد أن تكون هي الوسائل المشروعة التي بينها الله تعالى في كتابه وأرشدنا إليها النبي ﷺ في سنته؛ وذلك لا يكون إلى بتعلم تلك العلوم التي يمكن أن نسميها بعلوم التزكية فلا يصح للمبتدئ أن يبدأ بدراسة القواعد والأصول والمصطلحات ونحو ذلك قبل أن يلم بالعلوم الأساسية التي يستطيع من خلالها أن يمارس التزكية الشرعية الصحيحة لنفسه قبل الخوض قدمًا في طريق العلم الأكاديمي.

الدليل القرآني الواضح على ضرورة التزكية قبل المعرفة الأكاديمية:

هذا الدليل نلمح فيه تسجيل القرآن الكريم دعاء إبراهيم- عليه السلام- ببعثة الرسول محمد ﷺ وبيان مهامه التربوية المنوطة به بقول الله تعالى على لسان إبراهيم -عليه السلام-: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1].

إذا ما تأملنا إجابة الله تعالى لهذه الدعوة وجدنا أن الله تعالى قد أنزل إجابته

(١) البقرة: ١٢٩.

لهذه الدعوة في ثلاثة مواضع من القرآن لا رابع لها، وهذه المواضع هي:

١-قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾[١].

٢-قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[٢].

٣-قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[٣].

فهذه ثلاثة مواضع في كتاب الله تعالى لا رابع لها، وقد جاءت كلها على نسق رباني واحد، وهذا النسق هو ترتيب عمل الرسول ﷺ كالآتي:

١) تلاوة الآيات.

٢) التزكية.

٣) التعليم.

وتكرار الآيات الثلاثة بهذا النسق والترتيب المتحد يدل على أن إبراهيم الخليل -عليه السلام- قد فاته بعلمه البشري المحدود الترتيب الصحيح للمنهج الدعوي في عمل الرسول الذي دعا ببعثته.

وتأتي هذه الآية التي تشتمل على دعاء إبراهيم -عليه السلام- مخالفة في

---

(١) البقرة: ١٥١، ١٥٢.

(٢) آل عمران: ١٦٤.

(٣) الجمعة: ٢.

ترتيبها النسق القرآني في الآيات الثلاثة الأخرى التي تحدثت في هذا الصدد بذاته.

فالآيات بهذا الترتيب السابق كأنها تصحح خطأ في ترتيب إبراهيم- عليه السلام- للمهام التربوية للرسول ﷺ وكأنها تقرر تقريرًا جازمًا لا شبهة فيه ضرورة الالتزام بهذا الترتيب في منهج الدعوة والتربية.

هذا الترتيب الذي يعتمد البدء بالتزكية أولاً، ويقدم ذلك على تعلم الأحكام من الكتاب والحكمة.

فعملية التعلم والدراسة لابد أن يسبقها عملية إعداد وتأهيل هي عملية التزكية التي تعتمد في الفترة الأولى بالأخص على تلاوة القرآن والقيام به، وإلزام النفس مدارج الفضيلة والرقي والكمال الإنساني في تحقيق العبودية الحقة لله رب العالمين.

شمولية التزكية:

قلنا إن التزكية الشرعية المطلوبة هي تلك التزكية التي تعتمد على العلم الشرعي الصحيح من الكتاب والسنة الصحيحة وما كان عليه السلف الصالح - رضوان الله عليهم-.

وهذه التزكية لها جانبان: نظري وعملي، وكلا الجانبين متلاحمان لا يتصور انفصالهما ولا افتراقهما بحال، فلابد من الموالاة بينهما.

والدليل على ذلك أن الصحابة- رضوان الله عليهم- كانوا يتعلمون عشر آيات من القرآن، فلا يجاوزونها إلى غيرها حتى يتعلموا ما فيها من العمل، ويعملوا بما فيها، فتعلموا بذلك العلم والعمل جميعًا.

فالمفترض أن ما يتعلمه المسلم نظريًّا من خلال كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ أو كلام أهل العلم الثقات المتبعين هدي النبي ﷺ يسارع إلى تطبيقه وامتثاله أولاً بأول.

الجانب النظري:

فعلى المستوى النظري يتعلم المسلم في هذه المرحلة:

-معرفة الله تعالى بصفاته وأسمائه الحسنى.

-رؤية آثار صفات الله تعالى ودلائل قدرته ومظاهر رحمته وآلائه ونعمه في آيات الكون وصفحاته المرئية في كل شيء.

وصدق القائل:

فيا عجبًا كيف يعصى الإله أو كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

-معرفة رسول الله ﷺ بصفاته وشمائله وأخلاقه ومعجزاته وزهده وصدقه وورعه وحلمه، وجهاده في سبيل نشر دعوته، وتحمل الأذى في سبيل نشر هذا الدين العظيم.

ومعرفة أزواجه أمهات المؤمنين وبناته وآل بيته ﷺ.

-معرفة ما يجب عليه من توحيد الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وهو ما يسمى بتوحيد الربوبية باعتقاد أنه سبحانه هو المتفرد بالخلق والرزق والتدبير والسيادة والملك وغير ذلك من معاني الربوبية.

-معرفة ما يجب عليه من توحيد الله تعالى في عبادته فلا يتجه بشيء من العبادة لغير الله تعالى كالدعاء والتضرع والاستغاثة والنذر والذبح والطواف والخلق وغير ذلك من العبادات فلا يصرف شيئًا منها لنبي ولا ولي ولا لأحد إلا الله تعالى. وهذا ما يعرف بتوحيد العبودية.

- معرفة حقيقة الإسلام وما يقتضيه من الانقياد والاستسلام لجميع ما أمر به الله تعالى أو أمر به رسوله ﷺ، وأداء الفرائض الظاهرة: من صلاة وصيام وزكاة وحج وغير ذلك، واجتناب الكبائر والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

- معرفة حقيقة الإيمان وما يقتضيه من الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

- معرفة مهمات الأحكام لما يجب عليه من العبادات: كمعرفة أحكام الطهارة والصلاة والصيام والزكاة والحج والنكاح والطلاق والبيع والشراء والربا والرشوة ونحو ذلك مما يبتلى به من الأحكام والتكاليف في حياته اليومية.

- معرفة ما يستقيم به خلقه، ويصلح به دينه، من أعمال القلوب: كالصدقة والإخلاص والإنابة والتوبة والتوكل والاستقامة والخشوع والزهد والورع وتقوى الله تعالى ونحو ذلك من الأمور التي تحيا بها القلوب وينصلح حالها مع الله تعالى.

- معرفة الأخلاق الصالحة القويمة التي تستقيم بها معاملاته مع الناس نحو: العدل والوفاء والصدق والأمانة والإحسان ونحوها من الصفات القويمة مع اجتناب أضدادها من الرذائل الذميمة: كالغدر والخيانة والكذب والغش ونحو ذلك.

- معرفة الآداب الإسلامية التي هي عنوان السلوك الإسلامي ودليل على حسن السمت في الدين والثبات فيه.

وذلك يشمل آداب الطعام والشراب واللباس والنوم والمشي والحديث والاجتماع... إلخ ذلك.

الجانب التطبيقي:

المفترض أن يسارع المسلم لامتثال أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ، فكلما علم أمرًا التزمه، وكلما علم نهيًا اجتنبه، وكلما عرف قربة تقربه إلى الله أتى منها بما يستطيع، وكلما عرف شيئًا يكرهه الله ورسوله ﷺ تباعد عنه واجتنبه تمام الاجتناب.

فالمسلم عليه أن يترجم ما يتعلمه ترجمة عملية تطبيقية في كل شيء.

ففي مجال العقيدة:

إذا عرف الله تعالى بصفاته وأسمائه الحسنى، وعرف أنه الحي القيوم القائم على كل نفس بما كسبت والمدبر لكل شيء، الخالق الرازق المالك وحده، القادر المقتدر، المعز المذل، العليم السميع البصير اللطيف الخبير؛ فإن ذلك ينبغي أن يترجم من الناحية العملية إلى تعلق القلب به سبحانه وحده، فلا يخاف أحدًا سواه، ولا يتعلق قلبه بأحد سواه، فلا يدعو من دون الله تعالى وليًّا ولا أحدًا من الصالحين وكذلك إذا علم أنه هو أحكم الحاكمين، وأنه هو الملك العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، فإن ذلك يترجم من الناحية العملية إلى الرضا بشريعته سبحانه والتحاكم إليها، وعدم الرضا بحكم أو شريعة دونها.

إذا تعلم المسلم العقيدة الصحيحة وعرف معنى كلمة التوحيد جعل هذه الكلمة منهج حياة له في كل شيء، وحينئذ يكون قد وقف على المعاني العظيمة لهذه الكلمة العظيمة.

لا إله إلا الله أي: لا معبود بحق إلا الله.

أي: لا نخاف إلا الله، ولا نرجو إلا الله.

لا نلجأ لأحد ندعوه لكشف ضر أو جلب نفع إلا الله.

لا نتحاكم إلى شرع أو قانون غير كتابه وسنة نبيه ﷺ.

في مجال العبادات والأخلاق والمعاملات:

إذا علم المسلم منزلة الصلاة وقيمتها سارع إلى المحافظة عليها والخشوع فيها وتدبر معانيها، والالتزام بأدائها في أوقاتها، والإكثار من النوافل التي تقربه إلى الله تعالى.

ففي الحديث الشريف: « ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي

يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه».

وفي الحديث: «الصلاة خير موضوع» أي خير ما شرعه سبحانه للتقرب إليه، فإذا علم العبد ذلك استكثر من الصلاة ما استطاع مع التذرع بالصبر على منهج الله تعالى والرضا بقضائه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الخَاشِعِينَ﴾[1].

-وكذلك إذا علم فضيلة الصوم وعظم منزلته عند الله حافظ عليه وازداد منه،وأكثر من نوافله تزكية لنفسه وتأسيًا برسوله ﷺ.

-وكذلك إذا علم منزلة الزكاة والصدقة وأثرها في تزكية النفوس وتطهيرها من داء الشح والبخل؛ فإنه يحرص على أداء الزكاة المفروضة ويكثر من التصدق والإنفاق في وجوه الخير بعد أداء الفريضة.

وهكذا في كل باب من أبواب الخير تكون تزكية النفس، فزكاة النفس وطهرها وصلاحها يحصل بالصلاة والصيام والزكاة والحج والعمرة وتلاوة القرآن وقيام الليل والتصدق على المساكين والإنفاق في وجوه الخير وسائر القربات وبر الوالدين وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران وغير ذلك من أبواب الخير العديدة، كما تحصل زكاة النفس باجتناب الإثم والفواحش كلها ما ظهر منها وما بطن، وقد نبه الله سبحانه وتعالى المؤمنين إلى غضّ أبصارهم وحفظ فروجهم، وبين لهم أن :﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾[2] أي أطهر لنفوسهم وأطيب وأصلح لها.

فبفعل الخيرات واجتناب المنكرات تحصل زكاة النفس.

كما تحصل كذلك برقة القلب، وترقيق القلوب يحصل بمدارسة الرقائق من ذكر الموت وأهوال القبور والحشر والصراط والميزان وسائر أهوال اليوم الآخر

---

(١) البقرة: ٤٥.

(٢) النور: ٣٠.

والجنة والنار، وذكر أخبار الصالحين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

والنظر في القلوب لتطهيرها من الشهوات ورذيل الآفات كالرياء والكبر والغرور والفخر والحسد والحقد وغير ذلك من الآفات المفسدة للقلوب.

ثم السعي إلى اكتساب ما يصلحها ويرققها من تقوى الله تعالى والتوكل عليه والصدق معه واليقين بما عنده، وصدق الرجاء والرغبة إليه والرهبة منه، وغير ذلك من جميل الصفات.

فالمسلم يتعلم ذلك بالقراءة والاطلاع والمدارسة على المشايخ ومع الإخوان وسماع أشرطة أهل العلم وغير ذلك، ثم يحاول تطبيق ما سمع والتدرج بنفسه من حال إلى حال رقيًّا في الكمال، فيجتهد في تحقيق مقام التقوى، فإذا صار قدمًا انشغل بتحقيقه مقام التوكل، ثم مقام الصدق والإخلاص ... إلخ، وليس معنى ذلك أنه ينشغل بتحقيق صفة ويهمل باقي الصفات، ولكنه يجتهد في تطبيق الصفة فيراقب نفسه حتى تتمرس بتلك الصفة، وتعتادها.

كما أن عليه كذلك مراقبة أخلاقه وآدابه وسلوكه، فيحاول امتثال ما تعلم من ذلك أولاً بأول، ويراقب نفسه حتى تعتاد ما يعودها عليه من الأخلاق: كالصدق والعدل والأمانة والوفاء والإيثار... ونحو ذلك.

وكذلك يراقب سلوكه في آداب الطعام والشراب واللباس والنوم والسير والحديث والاجتماع وغير ذلك.

وبذلك يصبح مسلمًا حقًّا زكيًّا مستقيم السلوك.

نموذج قرآني فريد في تزكية النبي ﷺ لأصحابه:

لقد صوَّر لنا القرآن الكريم كيف زكّى النبي ﷺ نفسه وأصحابه وربّاهم في مدرسة القرآن على الصلاة وقيام الليل وتلاوة القرآن وسماعه، قال تعالى في سورة

المزمل: ﴿يأيها المُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا ۞ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلا﴾[١].

فهذه تزكية الله لنبيه ﷺ وتربيته له، حيث أمره بما يزكي به نفسه من صلاة الليل وقيامه وتلاوة القرآن، وأمره أن يقوم في ذلك ما استطاع من الليل نصفه أو أكثر أو أقل.

ثم يصور لنا القرآن الكريم كيف أخذ النبي ﷺ وأصحابه بهذا المنهج وكيف ثبت أصحاب النبي ﷺ معه على هذا المنهج سنة كاملة كانت تزكية لهم وتأهيلاً لحمل أمانة الدعوة لهذا الدين العظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُم مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

إنها دعوة شاملة للتزكية بكافة صورها من قيام الليل وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات والمجاهدة في سبيل الله تعالى كل ذلك طلبًا لزكاة النفس وصلاحها.

استمرارية التزكية:

إذا كنا قد قررنا وجوب البدء بإصلاح النفس وتزكيتها؛ فإن ذلك لا يعني أن التزكية مجرد مرحلة في بادئ الأمر ثم تنتهي، ولكن المقصود هو إشعال جذوة الحمية الإيمانية، وإذكاء نارها، ثم بعد ذلك لابد من تعهد تلك النار بتغذيتها

(١) المزمل: ١-٤.
(٢) المزمل: ٢٠.

بالوقود الصالح حتى لا تنطفئ، وحتى لا يتحقق للشخص مَثَل المنافقين الذي ضربه الله لهم حيث قال: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ۞ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾[1].

الإيمان شجرة تحتاج إلى وقفة لغرسها وتثبيتها، ثم تحتاج بعد ذلك تعهدًا بالرعاية والسقاية حتى تؤتي أكلها وثمارها كل حين بإذن ربها، وكذلك المؤمن لا يستغني عن الاجتهاد في العبادات والطاعات التي تزكي نفسه، ولا يستغني عن إنابة وتوبة وتطهير لنفسه وقلبه من الأدناس والأرجاس.

❁❁❁

(١) البقرة: ١٨.